الإمام

العز بن عبد السلام

- أفتى بتحرير الرقيق من المماليك قبل أن يحكموا مصر.
- رفض الدعاء للسلطان فى دمشق فحددوا إقامته!
- عندما حاول نائب السلطان قتله سقط السيف من يده!.

العز بن عبدالسلام

ولد فى دمشق سنة ٥٧٧ هـ، وعاش ٨٣ عاما، حيث توفى عام ٦٦٠ هـ ودفن بسفح المقطم.

تفتحت عيناه على الحياة ليجد والده يكسب قوته بصعوبة، فهو حينا يصلح الطرق، وحينا آخر يحمل الأمتعة، وفى بعض الأحيان يقوم بتنظيف الشارع أمام المحلات التجارية، وكان يذهب مع والده للصلاة فى جامع دمشق، وعندما مات والده كانت تتوق نفس الصبى إلى العلم، وأن يجلس إلى حلقات العلماء، وأعجب به أحد العلماء (الفخر بن عساكر) وتوسط له أن يعمل فى خدمة المسجد، ثم ساعده بعد ذلك على الالتحاق بحلقات العلم ، وظهر نبوغه وقدرته على الحفظ والاستيعاب مما جعل الشيخ يزداد حدبا عليه ورعاية له وضمه إلى حلقته، بعد أن حفظ القرآن الكريم، وتعلم القراءة والكتابة، وبعض فقه الإمام الشافعى، واستوعب الشيخ دروس اللغة من نحو وصرف ، كما استوعب الفقه وحفظ الأحاديث النبوية، والكثير من تراث الأدب العربى. . وتاقت نفسه إلى استيعاب العلوم التى شاعت فى عصره. . كالفلسفة والطب والكيمياء والتصوف وأتم دراسته، وعمل بالتدريس.

وفى نفس الوقت كان يروعه ما حدث فى العالم الإسلامى من انقسامات بعد موت صلاح الدين الأيوبى، واقتسام إرثه بين أبنائه وأخواته. . وأصبح كل واحد يكيد للآخر. . مما أغرى الصليبيين والتتار فى الطمع فى بلاد المسلمين.

وبدأ الناس يعرفونه فى دمشق. . فخطبه تخاطب القلب والعقل، وكان هو نفسه. . متوسط الطول، يحب المرح دون أن يتعدى ذلك إلى عدم الوقار، مهموماً بقضايا المسلمين. . وكان الرجل رغم نحافته قوى الإرادة.

وفى هذه الفترة عكف على القراءة فى المذاهب والفرق الكلامية من معتزلة وأشاعرة وغيرهم، كما درس فلسفة الإمام الغزالى، وآراء السهروردى المقتول

وفلسفته الإشرافية. . استوعب كل ذلك وأعجب بالأشعرى الذى لم يغال بأهمية العقل كما فعل المعتزلة ، بل كان فكره وسطاً بين المعتزلة وأهل السنة، دون إغفال لدور العقل.

وسطع نجم الشيخ العز بن عبدالسلام حتى سمع به حاكم مصر - الملك الكامل- وأوصى به عند أخيه الملك الأشرف ملك دمشق خيرا. . وطلب من أخيه أن يعينه شيخ حلقة فى الجامع الأموى، مما أثار عليه حنقة وغيرة رجال الدين الآخرين، وخاصة أنه كان يهاجم العلماء الذين لا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وينافقون الحكام.

وأخذ يحدث تلاميذه فى أمور الدين من فقه وأصول وأحاديث دون أن يتقيد بمذهب معين من المذاهب الأربعة، والتف حوله الناس.

وكان الرجل فى ورعه لا يحب أن يتقرب إلى السلطان، فأوغر حاسدوه قلب السلطان عليه، وأوهموه أن له آراء مخالفة لصحيح الدين، ولأن السلطان لم يكن على وعى بأمور الدين فقد صدقهم ، وتوعد الإمام ، وحاول بعض العلماء التوفيق بينه وبين السلطان إلا أن حاشية السلطان من العلماء المتزمتين أوغروا صدره ضده، فما كان منه إلا أن أمر العز أن يلزم بيته ولا يفتى ولا يجتمع بأحد!!

وكان رد العز بن عبدالسلام لرسول السلطان. . إن هذا العقاب من نعم الله الجزيلة علىّ الموجبة للشكر على الدوام، أما الفتيا فإنى كنت والله متبرما منها، واعتقد أن المفتى على شفير جهنم ، ومن سعادتى لزوم بيتى وتفرغى لعبادة ربى والسيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته ، واشتغل بطاعة الله ، وعندما علم السلطان برده هذا قال:

قولوا لى ما أفعل به؟ هذا رجل يرى العقوبة نعمة. . اتركوه . . بيننا وبينه الله.

وما كان عزل العز بن عبدالسلام يرضى العلماء، فقد احتج الشيخ جمال الدين الخضرى شيخ الحنفية وابن الحاجب المالكى، وذهبوا إلى السلطان وأقنعوه أن العز لم يخطىء فى فتاويه ، وأنه يجب أن يعتز به بدل أن يحدد إقامته فى منزله إلى أن اقتنع السلطان وأحضر العز بن عبدالسلام واعتذر له وترضاه.

وعندما جاء ملك مصر الكامل لزيادة أخيه الأشرف وعلم بما حدث أنب أخاه وأوصاه مرة أخرى بالشيخ فأصدر السلطان مرسوما بأن يكون إماماً للمسجد الأموى.

وعاد الملك الكامل إلى القاهرة .. وبعدها مرض السلطان، وتولى أخوه الصالح إسماعيل الحكم ، وتراخت قبضته على الحكم وانتشر الفساد والمظالم، مما دعا ملك مصر إلى الذهاب إلى الشام ليضع حداً لاستهتار الصالح إسماعيل ويولى الشيخ عز بن عبدالسلام القضاء، ولكن لم يكد يمسك أمور الحكم حتى عزل الشيخ عز من القضاء.

ومات الملك الكامل ملك مصر، وخلفه أخوه وكان ضعيفاً مستهتراً فخلفه أخوه نجم الدين أيوب.

وكان الصالح إسماعيل قد فتح الباب أمام الصليبيين لشراء السلاح من دمشق، مما أوغر صدر الإمام العز الذى هاجم السلطان، فأمر بسجنه!.

ثم أفرج عنه وأمره بأن يلزم داره، فما كان من العز أن طلب من السلطان أن يسمح له بترك البلاد، وأن يتجه إلى مصر، ففرح السلطان بذلك فقد تخلص من الرجل الذى يتهمه بالخيانة ويؤلب الناس عليه.

ويقول السيوطى وهو يتحدث عن قصة خروجه من دمشق :

« واستطاع ابن عبدالسلام والشيخ جمال الدين أبو عمرو الحاجب الخروج إلى الديار المصرية، فأرسل الصالح إسماعيل إلى عز الدين - وهو فى الطريق - رسولاً يطلب إليه العودة إلى دمشق، فاجتمع به وقال له:

- ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير!!

فرد عليه ابن عبدالسلام :

- يا مسكين .. وما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده .. يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد.. والحمد للّه الذى عافانا مما ابتلاكم».

وفى مصر استقبله السلطان نجم الدين أيوب استقبالاً يليق بعالم جليل، وعينه خطيباً لمسجد عمرو بن العاص، ثم ولاه القضاء.

ولكن الرجل النحيف، خفيض الصوت الذى كان لا يهاب إلا اللّه، حدثت بينه وبين فخر الدين عثمان وكان المشرف على شئون القصر صداما، فإن هذا الرجل أقام على ظهر أحد المساجد (طبلخانة) أى مكاناً للطرب والطبل، واستاء الناس من هذا التصرف فكيف يكون الطرب والطبل فوق أحد المساجد ، والرجل يتخذ من وظيفته ونفوذه ما يرعب الناس، إلا أن العز بن عبدالسلام أمر بهدم هذه الطبلخانة ونفذ هذا الحكم.

وعلم العز أن أمراء مصر من المماليك، وأنهم لم يتحرروا من الرق، وطلب من السلطان أن يباعوا فى الأسواق حتى يحرروا من ربقة الرق. وحتى يحق لهم بعد ذلك أن يتبوأوا مناصبهم.. وضاق الأمراء المماليك من ذلك، ولكن فتوى الشيخ كانت قد انتشرت، وتحت الضغط من الإمام العز ومن الناس، اضطر السلطان أن يوافق على بيع هؤلاء المماليك فى الأسواق ثم اشتراهم وأعتقهم، وأخذ أثمانهم ليصرف فى صالح المسلمين.. واعتق السلطان رقابهم!

ويروى التاريخ أن نائب السلطان وقد أزعجه أن يباع فى الأسواق، استل سيفه وركب حصانه متجهاً إلى منزل الإمام العز يريد قتله ، وعندما طرق باب البيت خرج ابن الشيخ فهاله أن يرى نائب السلطان وقد أشهر سيفه يريد قتل الإمام.

ودخل الابن إلى أبيه يخبره بالخبر، فما كان من الإمام إلا أن قال لابنه.

- ياولدى .. أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ثم خرج ليواجه هذا الطاغية، وما كاد يراه نائب السلطان حتى هابه وسقط السيف من يده وهو يرتعد.. وبكى وسأل الشيخ أن يدعو له!

وكان الرجل عنده الشجاعة الأدبية فهو لا يخشى إلا الله، وقد حدث مرة أن أفتى فتوى وظهر له أنها غير صحيحة فنادى على نفسه.

من أفتى له ابن عبدالسلام بكذا فلا يعمل به، فإنه خطأ.

ويقول ابن كثير عنه:

«كان فى آخر عمره لا يتقيد بالمذاهب ، بل اتسع نطاقه ، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده».

ولما عزل الشيخ نفسه عن القضاء تلطف السلطان فى رده إليه، فباشره مرة ، ثم ثانية وتلطف مع السلطان فى إمضاء عزله، فأمضاه وأبقى جميع نوابه من الحكام، وكتب لكل حاكم تقليدا ، ثم ولاه التدريس بمدرسته التى أنشأها فى القصر الفاطمى الشرقى، والتى تعرف باسم المدرسة الصالحية.

وأصبح للإمام تلاميذ كثيرون فى مصر منهم ابن دقيق العيد، والإمام علاء الدين بن الحسن الباجى، والشيخ تاج الدين بن الفركاح وغيرهم.

عاش الرجل لايهاب أحداً إلا اللَّه.

وظل طوال حياته موضع احترام كل المصريين الذين رأوا فيه إنساناً يقول الحق مهما كانت أشواك الطريق، فقد تصدى للمماليك، وجعل ميزان العدل لا يميل.. ووقف بجانب الضعفاء والمساكين .. وكان مع ذلك متفرغاً للعلم، فألف كتاب (القواعد الكبرى) وكتاب (مجاز القرآن) وشجرة المعارف ، كما أن له مختصر (صحيح مسلم) ومختصر رعاية المحاسبى وغير ذلك من المصنفات.

وكان الرجل بجانب ذلك متصوفاً زاهداً محباً لله ورسوله.

بل قالوا عنه أن له كرامات كثيرة ولكنه كان ينفى ذلك عن نفسه.

والرجل الذى عاش فى دمشق صباه وشبابه لم ينس الناس مواقفه، خاصة عندما هاجم السلطان الذى يهادن الصليبيين، ويتعامل معهم، بل يسمح لهم بشراء الأسلحة من دمشق ليقتلوا بها المسلمين فى فلسطين وغيرها من البلاد التى وقعت تحت قبضة الصليبيين، مما حدا به ألا يدعو للسلطان على منبر المسجد، بل كان يدعو هذا الدعاء.

«اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد، تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه معصيتك».

ولم ينس الإمام قط كيف كان الناس يرددون هذا الدعاء بإيمان عميق، وحرارة من يريدون أن يتحرروا من عبودية الصليبيين الذين جاءوا إلى الشرق طمعا فى ثرواته، وليس لحماية مقدساتهم من المسلمين.

ولم ينس له الناس فى مصر مواقفه التى لا تعرف الانحناء ولا التملق ولا الرياء للحكام فلم يخش إلا الله، وواجه المماليك رغم صولتهم وهيبتهم وهيمنتهم على رقاب الناس فأذلهم وباعهم كرقيق فى الأسواق، مما جعل المصريون يرون فيه إنساناً.. جليلاً.. مهاباً.. رغم تواضعه، ولا يعرف إلا تطبيق شرع الله.

وها هو قد بلغ الثالثة والثمانين من العمر.. قد أقعده المرض على أن يذهب إلى المدرسة السلطانية ليلقى دروسه.. ولكن الحنين كان يدفعه دفعاً أن يلتقى بتلاميذه، وأن يسمعوا منه ما تعلمه وما اجتهد فيه، ليعرفوا أمور دينهم وأمور دنياهم على هدى من الشرع الحنيف، ولكن جسده الذى أنهكه التعب، لم يسعفه فى ذلك.

وذات يوم صمم على أن يذهب إلى المدرسة، وأن يلتقى بتلاميذه، وتغلب على أوجاع المرض وأوجاع الشيخوخة، واستعان بأحد أبنائه إلى أن ذهب وجلس بين الناس، واستراح إلى أن استرد أنفاسه ثم أخذ يشرح ويفسر لهم الآية الكريمة.

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴿٣٥﴾ ﴾[النور].

أثناء تفسيره لهذه الآية الكريمة والناس كلهم آذاناً صاغية لكلمات الإمام الجليل مال الرجل بجسمه ثم صمت فقد مات الإمام العز بن عبدالسلام مات الإمام الذى كانت آخر كلماته التى نطق بها ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾.

وكانت وفاته فى جمادى الأولى سنة ٦٦٠هـ، وشيعته جماهير مصر الوفية إلى مثواه الأخير، وفى مقدمتهم الظاهر بيبرس، الذى حمل النعش بنفسه تقديراً لهذا الإمام الجليل، ودفن فى الضريح الذى يحمل اسمه بسفح المقطم فى منطقة البساتين.. وان كان ضريحة الآن فى حاجة إلى العناية بما يليق بهذا الإمام الذى ظل وسيظل اسمه فى أنصع صفحات التاريخ.